امي الحبيبة .

رأيتك في الحلم ليلة امس. واذ نهضت هذا الصباح ، شعرت بغمٍّ يملأ صدري من ذلك الحلم . لا ، لن اروي لك تفاصيل الكابوس ، وكل ما ارغب به اليك ، بعد ان تفرغي من قراءة هذه الرسالة ، ان تسارعي إلى كتابة رسالة تقولين فيها إن صحتك جيدة ، وانك لا تشكين شيئاً .

منذ اسبوع فقط انتقلت الى هذا الفندق ، ونزلت في غرفة صغيرة من الطابق السادس فيه . تسألينني إن كان للفندق مصعد؟ لا يا امي . ولكن لا تحزني لي . ام تحسبين اني اصبحت شيخاً يرهقه ركوب قدميه ؟ أعليَّ انا تشفقين ؟ اذن ، فما عساه يكون موقفك من « بول » ؟

آه، من هو بول؟ إنه جاري البولوني الذي يرقى ستاً وثمانين درجة من السلم بساق واحدة . إن ساقه اليمنى مقطوعة يا امي، وكذلك ذراعه اليمنى . ومع ذلك فلا حاجة به الى المصعد . إن له ساقاً اخرى ، وذراعاً اخرى، وإن تحت ابطيه عكازين .

ولقد اخافني ، يا امي ، صوت هذين العكازين ، حين افقت عليه للمرة الاولى تلك الليلة . لقد فتحت عينيَّ ، وانا اسمع تلك الطرقات البطيئة الجافة على السلم الخشبي ، فشعرت بخفق قلبي ، وبضيق في صدري ؛ وامسكت انفاسي حين اقترب صوت الطرقات من باب غرفتي ، ثم انقطع ، فتفاقم خوفي ، وظللت اترقب ان يُقتحم الباب ، ويدخل عليَّ لص او عربيد، او ايّ رجل يريد بي شراً . ولكني ما لبثت ان سمعت صرير القفل في باب الغرفة المجاورة، فهبط صدري، وتزايل خوفي رويداً رويداً.

وفي اليوم التالي، علمت من مدير الفندق ان جاري البولوني قد فقد ساقه وذراعه في الحرب الاخيرة، وانه يعمل منذ سنوات في مصنع للأحذية ، ضارباً على الآلة الكاتبة.

وحين سمعت مساء ذلك اليوم بالذات ، طرقات العكازين البطيئة الجافة على السلم الخشبي ، لم اشعر بأية رهبة، يا امي ، بل احسست بودّ دافيء لجاري البولوني . ولولا اني كنت متعباً تلك الليلة ، من فرط القراءة والكتابة، لفتحت بابي وسعيت الى لقاء جاري للتعرف عليه ، ودعوته الى تناول فنجان من القهوة في غرفتي .

وتعرفت على جاري في اليوم الثالث ، ولكني تعرفت عليه وانا اكاد ابكي يا امي . فقد فتحت بابي حين سمعت طرقات عكازيه البطيئة الجافة على السلم الخشبي ، ووقفت على العتبة متردداً ، التمس سبيلاً لمبادرته بالحديث . ولكنه ما كاد يراني، حتى توقف فجأة عن الصعود ، او توقف عكازاه ، كأنما باغتته رؤيتي. وسرعان ما رأيته يهوي الى خلف، وتخطىء يده الحاجز، فيتدحرج على السلم بضع عشرة درجة، ويتصادم عكازاه في اثناء تدحرجه فيحدثان ضجة ودوياً ، قبل ان يستقرا الى جانبه، عند نهاية الدرج .

وظللت على عتبة بابي لحظات لا اتحرك ، كأنما تعطل مني الشعور ، فغدوت صنما لا حس فيه . ثم احسست فجأة بغصة في حلقي وطنين في رأسي . واندفعت بي قدماي . وفيما انا اهبط السلم ، شعرت بألم شديد في ساقي ، عقبه خدر ، خدر لذيذ جداً، كأنه لم يكن لي ساقان ، كأن ساقيَّ ، انا ايضاً ، مقطوعتان يا امي .

لم احس بأنني لمست السلم بقدمي ، فقد رأيتني فجأة الى جانبه، كأنما قد قفزت الدرجات كلها قفزة واحدة . ومددت ذراعي اليه ، هو جاري البولوني ، اود ان ارفع رأسه وكتفيه عن الارض. وفي انحناءتي فوقه، اقترب وجهي من وجهه ، فشعرت بأنفاسه تلفح خدي . وكانت انفاساً راعشة حارة . وكان حتى تلك اللحظة مغمض الجفنين، منقلص القسمات ، ناطقاً وجهه بالالم. ولا ريب في انه قد شعر بأنفاسي تلفح خديه ، ففتح عينيه . ولم

ادر ماذا رأيت فيها حتى اشعر بالدمع يترقرق في عيني . وحين بكيت، يا امي ، شعرت بأن هذا الذي بين ذراعي هو اخي.

ـ عفوك ياسيدي ...

لست ادري منذا الذي قالها، اهو أم انا، ولكني اعرف اني كنت اود ان انطق بها ، إن لم انطق بهـا فعلا . فقد كنت مقتنعاً اشد الاقتناع بأني كنت المسؤول عن سقطته . كان يرقى السلم كعادته عـلى ثقة واطمئنان ، فبرزت في وجهه وقطعت حبل اطمئنانه ، فافقدته توازنه . عفوك يا سيدي . انني شديد الاسف لسقطتك ، واني ارجوان يكون ما اصبته من الم يسيراً هيناً . أتشكو شيئا في رأسك ، ام في ظهرك ، ام في يديك.. لا، عفوك ياسيدي . خذ ؛ هذان همـا عكازاك. بل اعتمد على كتفي . هات ذراعك . هات ذراعك يا اخي..

واجلسته على كرسي في غرفتي . وكان يلهث ، وكنت مثله الهث . ووضعت يدي على كتفه برفق اسأله ان كان قد خف الم ، فابتسم ابتسامة حزينة وقال :

ـ لا عليك يا سيدي .

وتلبث لحظة قبل ان يردف ، وهو يسبل جفنيه :

ـ لقد تعبت اليوم كثيراً في المكتب، وحين رأيتك عـلى العتبة ، كانت قوتي كلها قد نفدت ، فوقفت لأستريح ، ونسيت ان اعتمد الحاجز .

ثم رفع إليّ بصره ، وعـادت الى شفتيه بسمته الحزينـة وهو يضيف :

ـ اعذرني ايها الصديق على ما كلفتك من مشقة .

ومرت لحظات لا يقول احدنا فيها شيئاً . ثم رأيته يتململ في مجلسه ، كأنما ادرك انه ازاء رجل غريب لم يعرفه إلا منـذ هنيهة ، فتحرّك يهمّ بالنهوض قائلا :

ـ اسمح لي الآن ان اتركك. فلا بد ان عندك ما يشغلك.

ولكني سارعت فأنكرت ان يكون بين يدي ما هو جدير بأن يشغلني عنه آنذاك ، ورجوته ان يبقى في غرفتي هنيهـة اخرى ، ثم نهضت فأعددت له فنجاناً من الشاي . ولقد نظرت الى عينيه مرة ثانية ، عبر البخار الذي كان يتصاعد خفيفـاً من الشاي ، فقرأت فيهما املا غامضاً يود ان يصارع شبح الفاجعة. ثم غادرني بول الى غرفته بعد ان تحدثنا ردحـاً من الزمن . وظلت استمع عبر الجدار الذي يفصل غرفتينـا الى حركاته وصوت عكازيه وصرير سريره .

وبقيت اتساءل تلك الليلة : لماذا لا يبحث بول لنفسه عـن غرفة منخفضة في احد الفنادق المتواضعة فيوفر على نفسه هـذه المشقة الكبيرة في ارتقاء ست وثمانين درجة ؟ أتراه افقر من ان يدفع مبلغاً اكبر من هذا الذي يدفعه اجرة لغرفته الصغيرة هذه؟

وطرق عليّ جاري الباب مساء اليوم التـالي ، وسألني برقة ولطف عما اذا كان لا يزعجني ان يجالسني ربع ساعة، فقد أنس بي وشعر لي بثقة واطمئنان ، فرحبت به وشكرت له انه اقبل يتيح لي هدنة قصيرة مع القلم والكتاب ، كنت إذ ذاك بأشد الحاجة اليها ، وإن كنت لا احسّ هذه الحاجة .

وقد حدثني بول ذلك المساء عن كثير من شؤون حيـاته الجارية ، فأدركت انه يسوق حياة الكفاف ، وان عاهته تعجز غالبا عن ان توفر له ما يقيم اوده، في عالم لا يثبت في معركته إلا المصارع السليم ، بله القوي . وقد فهمت منه انه كان يدفع اجرة غرفته نصف ما كنت ادفعه اجرة لغرفتي ، وهو مع هذا ينوء بذلك المبلغ ، وانه يبحث عن غرفة اقل كلفة ، ولو كانت اكثر ارتفاعا .

ولقد وددت يا امي ، لو كان في مكنتي ان اعين بول على امره او اشاركه غرفتي . ولو ان ذلـك كان في طاقتي حقا لرفضه صاحب الفندق الشرس .

وكان بول يحدثني عن عمله الضئيل في المصنع ، حين وقع

بصره على صورتك يا امي ، موضوعةً في إطارها الخشبي على طاولة صغيرة بجذاء سريري ، فاذا هو ينقطع عن الحديث هنيهة ، ثم يسألني :

ـ أليست هي امك ؟

فأومأت برأسي إيجابا ، فعاد ينظر الى صورتك بكآبة ، ثم اسبل جفنيه مرة اخرى وقال :

ـ إن امك تنتظر عودتك اليها دون ريب ، وأنت عائد عمّا قريب . ولكن امك حين تلقاك وتضمك الى صدرها ، فستلقى انساناً كاملاً ، وستضم بشراً سوّياً ...

ونظر إليّ بول ، وعلى شفتيه بسمة مرة ، ثم اردف :

ـ وقد تبكي امك حين تراك ، ولكنها ستبكي فرحة بلقائك واعتزازاً بك ... لا اشفاقا عليك ورثاءً لك ...

ورأيت يده ، يده اليسرى السليمة ، ترتفع مرتعشة الى وجهه ، فتغطي عينيه في حركات عصبية ، ثم تتلمّس اصابعُه جبينه وخدّيه بتشنج ، كأنما كان يصارع فيضاً من الدموع في مآقيه ، وردد فجأة بنبرة مجروحة معذبة :

ـ اجل .. لا إشفاقاً عليك ورثاء لك.. لا إشفاقاً عليك..

وأصاب لساني البكم ، وجمدت على شفتي الكلمات، وشعرت بضيق شديد يأخذ بصدري . وماذا كان بوسعي ان أقول ، لو قدرت على الكلام ؟ لقد كان قصارى ما عملته ، ان أدنيت كرسي من بول ، وألقيت ذراعي على كتفيه ، وجعلت أربت عليهما ملاطفاً ومهدئاً .

وحين سكن جاري البولوني ، وذهبت سورة اعصابه ، لم يتكلم طويلاً :

ـ رسالتان فقط ، تلقيت منها طوال بقائي في الجبهة ، طوال تسعة عشر شهراً . كانت الرسالة الأولى تحمل إليّ نبأ مرضها بعد مغادرتي المنزل الذي لم يكن يضمّ سواها وسواي منذ تسعة اعوام ، منذ مات أبي . وقد قالت لي في تلك الرسالة إنها تشعر بانها ، وهي وحيدة في البيت ، ليست إلا مخلوقاً تافهاً ، وانها تخجل من حياتها البليدة إذ تفكر بانني في الجبهة أعانق الموت عشرين مرة كل يوم . وكان ختام تلك الرسالة القصيرة قولها بانها لا تعيش إلا لتتلقى رسائلي وتعانق فيها روحي ، وانها تبتهل إليّ بان أكتب لها دائماً ، ولو قصّرت هي في الاجابة ، إذ كانت تعاني ألماً شديداً في الكتابة إليّ .

وأنحى إليّ بول بصره ، وقد ذاب فيه أسىً رهيف :

ـ الرسالة الثانية ؟ لقد تلقيتها تسعة أشهر بعد الرسالة الاولى . وكانت فيها عبارة واحدة ، عبارة يتيمة : « بدأت يا ولدي أقاوم الموت ، وسأظل أقاومه حتى ترجع . واقسم لك انني سأستسلم له بعد ان اضمّك مرة واحده بين ذراعيّ . »

وأضاف بول بلهجة هازئة :

ـ كان اليأس قبل ان تبلغني هذه الرسالة يوشك ان يتغلب عليّ في الميدان . كنت أعرّض نفسي لكل خطر وأدعو الموت إليّ كل لحظة ، وانا أزداد يقيناً بان الحياة أتفه من ان تستحق ان يعيش فيها إنسان ينقلب وحشاً في ساحة القتال ، لا همّ له إلا تمزيق لحم اخيه . ولذلك كانت فكرة الموت هينة على نفسي ، حتى تلقيت رسالة أمي هذه ، فأصبحت أخشى الموت . اصبحت اخشاه لأني ايقنت ان الحياة جديرة بان تعاش من اجل امّ يعذبها ان تشعر بتفاهة وجودها إذ تذكر ان ابنها يجابه الموت . لقد حننت ان أضمّ امي مرة واحدة الى صدري ، قبل ان اموت . وحين بدأت اخاف الموت، اقترب مني الموت . في اليوم التالي ، انفجرت القنبلة بيننا، فقُتل سبعة عشر من رفاقي، وجُرح كثيرون. وبترتْ شظية كبيرة ساقي اليمنى؛ وفي المستشفى، كان لا بدّ من بتر ذراعي اليمنى بعد اذ اصابتها شظية اخرى فالتهبت جروحها .

وظلّ بول اثنى عشر يوما يصارع الموت في المستشفى ، حتى قطع الأطباء كل أمل بافلاته من الهلاك ، لشدة ما نزف من دمه ، وفرط ما نفد من قواه . ولكنه كان يريد ان يعيش ليرى امه التي كانت تحيا على امل لقائه. وحين زال عنه الخطر، قرر الاطباء الا يسمح له بمغادرة المستشفى قبل مرور اربعة أشهر على الاقل . غير انهم سمحوا له ، بعد الحاح شديد ، بان يقابل أمه فدعاها اليه .

ـ وحين دخلت عليّ غرفتي ، كان وجهها ممتلئاً بالنور . كانت كأنما استعادت صباها . كانت الحياة شعلة في عينيها . وحين ضمتني امي الى صدرها ، شعرت ان في جهشة بكائها السعادة كلها. ولكن بدا انها لم تحس في ضمتي إياها الدفء الذي كانت تنتظره ... فتراجعت خطوة ، واذ ذاك ادركت كل شيء . وسرعان ما انخرطت في البكاء ، وكان في جهشتها هذه المرة الشقاء والاشفاق والرثاء . بل لقد خيل إليّ اني اقرأ في عينيها الخوف ، كأنها خافت ان تضم اليها جسداً مشوهاً مبتوراً ، انساناً شوهت الحرب معنى حياته إذ شوّهت جسمه.

من ذكرياتي المدرسية

بقلم مارون عبود

اليس من حق الطالب ان نعرض عليه شريط ذكريات مدرسية قديمة وحديثة ؟ اليس هو اليوم منصباً على دروسه حالماً بشهادته ، عروس آماله التي يرى السعادة كلها في تزاويقها وحروفها ؟

يقول الناس عموماً وذوو التلاميذ خصوصاً : اين مدارس هذا العصر من مدارس ذلك الزمان ! واين تلاميذنا من اولئك التلاميذ !

انهم طبعاً يضعون الحق على المدارس : ويبرئون انفسهم حين يقولون هذا . ولهذا انا اروي ما مر على رأسي من شؤون المدارس وشجونها ، فيقابل القارىء بين مربي ذلك الزمان ، ومربي اليوم. دق قلبي دقات عنيفة عندما قال ابي لأمي : دبّرنا له المدرسة . والتفت اليّ وقال وهو يجر كلماته : غداً تصير الشدياق مارون . فلم أبدِ ما كان ينتظره من الارتياح فأعرض عني .

ودخلت المدرسة مع من دخلوا، فكانت الفاتحة ان اكلت قضيبين سخنين على سفح ظهري، فأرخيت لرجلي العنان فاستقبلني والدي العملاق بأحد قضبانه .

كان، غفر له الله، يعمل بنصيحة ابن سيراخ القائل: اذا احببت ولدك فهيء له القضبان حزماً حزماً . ثم قادني باذني كالعنزة الشاردة ، وهناك على اعين التلاميذ قال الكلمة المأثورة للمعلم : اللحم لك والجلد والعظم لي، ثم التفت بي وقال: فهمت يا كلب. ومنذ ذلك الحين صرت اطوع من الخاتم في الخنصر ، وانعم من المخمل .

ويوم احد الوردية الكبيرة خرجنا من الزباح ، فاذا بزمارين معهم دب يغنون له ويرقص على وقع الدف والقصب ، فعجبت من طواعية الدب واستوائه كالبشر ، يعرض العصا بين كتفيه كالناطور ، ويمشي مشية الصبايا والعجائز ، ينام ويقوم كما يكلفه صاحبه ، حتى انه يدخن بالغليون .

قلت لوالدي : الدب كيف تعلم كل هذا ؟!

فضحك وقال لي المثل المعروف : العصا تعلم الدب الرقص.

ففهمت تعريضه بي وقلت في نفسي : اذا كانت كقضبانك تعلم اكثر من دب .

هذي واحدة من ذكريات مدرستي الاولى ، مدرسة تحت السنديانة ، حيث كنا نصطف خطاً طويلاً حد حيط الكنيسة ، الاعلى فالاعلى علماً . وفي تلك المدارس كانت تسوسنا العصا استاذة الدب ، اما عقاب الجرائم الكبرى فكان (الفلق) ليتك تذوق طعمه . الفلق خشبة تكمش الساقين كمشاً كالعضّ ، لتعرض القدمين الى قضيب المعلم فينصبّ بلا شفقة . انني لم اذق هذا العلاج ، والفضل لحزمة قضبان الوالد التي إذا مات منها سيد قام سيد .

وصمت بول ليستعيد انفاسه المتقطعة ، ثم انتهى الى القول:

— ولم يسمحوا لها ان تبقى الى جانبي طويلاً . وبعد اربعة ايام بلغني نعيها .

★

امي الحبيبة

لم انم تلك الليلة إلا قبيل الفجر . كانت صورتك تملأ عيني ، ويخيل إليّ احياناً انها كانت تفقد بعض ملامحها لتحل محلها ملامح اخرى فيها مشابه من وجه جاري البولوني ، جاري بول الذي اجهد الآن كثيراً لاستعادة قسمات وجهه . فقد نسيت ذلك الوجه او كدت ، منذ ان غادر الفندق ، بحثاً عن غرفة اصغر وأقل أجراً ، كما قال لي صاحب الفندق .

وانا منذ ثلاثة ايام انتظر ، يا امي ، كل مساء طرقات ذينك العكازين البطيئة الجافة على السلم الخشبي ، فأشعر بخيبة وكآبة إذ يمضي الليل فلا اسمع تلك الطرقات . كم اودّ ، يا امي ، ان اعرف موقع الغرفة الحقيرة التي نزلها أخي بول .

سهيل ادريس